الإنسان والمكان والزمن بعين رسامة مصرية مُلهمة

القاهرة تُعيد اكتشاف أعمال فاطمة العرارجي عبر معرض «رحلة السبعة عقود»

يعدّ معرض "الإنسان والمكان والزمن.. ورحلة السبعة عقود" للفنانة المصرية فاطمة العرارجي، المقام حاليا بقاعة "المسار للفنون" في القاهرة واحدا من بين أهم العروض الفنية التي أقيمت هذا الموسم في مصر، إذ يمثل إعادة اكتشاف لواحدة من الفنانات المتميزات في مجال التصوير في مصر، مستعيدا أعمالها وحضورها على الساحة الفنية بعد احتجابها عن العروض الفردية لما يزيد عن عقدين.

ناهد خزام
كاتبة مصرية

تستضيف قاعة "المسار للفنون" في القاهرة حتى منتصف يناير القادم معرضا لأعمال الفنانة المصرية فاطمة العرارجي تحت عنوان "الإنسان والمكان والزمن.. ورحلة السبعة عقود".

وتنتمي الفنانة فاطمة العرارجي لجيل الخمسينات، وهو الجيل الذي حمل على عاتقه مسؤولية الاكتشاف والبحث عن هوية فنية محلية وسط تأثيرات طاغية من الأفكار والرؤى الغربية.

أعمال الفنانة فاطمة العرارجي صُبغت بطابع خاص يجنح إلى البحث والتجريب والتمرّد على الممارسات التقليدية

وتعدّ تجربة العرارجي في مجال التصوير إحدى التجارب الملهمة للفنانات المصريات المنتميات إلى هذا الجيل والأجيال اللاحقة له، فهي تجربة متكاملة تحمل سماتها المحلية الواثقة والراسخة بقوة، كما تنطوي على ملامح تطوّرها وفرادتها.

تخرجت فاطمة العرارجي من كلية الفنون الجميلة بجامعة الإسكندرية عام 1955 والتحقت بهيئة التدريس فور تخرجها في الكلية نفسها، حتى ترأست قسم التصوير بها، وهي تنتمي إلى الموجة الثالثة في حركة التشكيل المصري بعد جيل الرواد وجيل الأربعينات.

فرادة المنجز

تميزت العرارجي كفناني جيلها بالتفاعل مع الأحداث السياسية والاجتماعية، بداية من فترة الخمسينات وما تلاها من سنوات مليئة بالأحداث الفارقة، كالعدوان الثلاثي على مدينة بور سعيد، والحروب التي أعقبته.

وخلال مسيرتها الفنية عكفت الفنانة على البحث عن هويتها الفنية كمصرية عربية وكإنسانة تعيش في عالم زاخر بالثقافات والأحداث، وأخيرا كامرأة تنظر إلى العالم من حولها بعين الأنثى.

كل هذه المؤثرات صبغت تجربة الفنانة فاطمة العرارجي بطابع خاص يجنح إلى البحث والتجريب والتمرّد على الممارسات التقليدية، فانعكس ذلك على تطوّر تجربتها الفنية، بما يتضمنه هذا التطوّر من تأثيرات مختلفة.

وهذا التصاعد الفني في تجربة الفنانة المخضرمة، بما يتضمنه من مراحل وانتقالات سلسة أو حادة أحيانا، هو ما يمكن أن نخرج به من هذا المعرض الذي يضم نماذج مختلفة لمراحلها ومحطاتها الفنية المتعددة. إذ نستطيع مثلا أن نلمح تردّدها بين التشخيص والتجريد، أو بين تمسكها بالمقومات الراسخة للعمل التصويري وتمرّدها في ما بعد على هذه التفاصيل والمعالجات التي اتسمت بها أعمالها في بداية التجربة. إنه معرض أشبه بسيرة ذاتية لفنانة من جيل الخمسينات، يحمل روح وعبق هذه المرحلة المفعمة بالطموح والبحث والتجريب والتأثير والتأثر.

أولى هذه المؤثرات التي يمكن أن نلمحها في أعمال العرارجي تتمثل في استلهامها للفن المصري القديم في أعمالها الأولى. فخلال بحثها الدؤوب عن هويتها الخاصة في بداية مشوارها الفني اتجهت الفنانة إلى التنقيب عن سمات هذه الفنون القديمة، ساعدتها في ذلك إقامتها الطويلة في مدينة الأقصر الواقعة جنوب مصر، وهي الفترة التي قضتها هناك ضمن منحة تمنحها كلية الفنون الجميلة لخريجيها الأوائل.

وفي مدينة الأقصر تشبّعت قريحة الفنانة بالمنحوتات الصخرية، والرسوم الملونة على جدران المعابد والمقابر، والطرز المعمارية التي تزخر بها عاصمة مصر القديمة، ففي كل شبر معلم أثري أو إشارة دالة على ما كانت تنعم به هذه المدينة من رخاء في غابر الأزمان.

كان لا بد لهذه الأجواء أن تلعب دورا في تشكيل رؤية الفنانة فاطمة العرارجي، ظهر ذلك التأثير على معالجاتها المبكرة للشخوص والعلاقات الخطية واللونية، واستمر هذا الأمر معها طويلا كخط مشترك يربط بين مراحلها اللاحقة في ما بعد.

مع اهتمام فاطمة العرارجي الواضح بالفن المصري القديم، كانت لها دراسات جادة كذلك حول نماذج الفنون الأخرى التي عبرت على مصر، من فنون قبطية وشعبية وإسلامية، ثم ما لبثت أن تجاوزت كل ذلك إلى البحث عن مصادر أخرى للثراء البصري، فاتجهت إلى التعرّف على الفنون البدائية، والتي تظهر أحيانا في لمحات من أعمالها، كل ذلك وهي تضع في اعتبارها ما أنتجته البشرية من فنون معاصرة.

ثراء بصري

المحطة الأبرز في مسيرة فاطمة العرارجي الفنية تمثلت في رحلتها إلى إيطاليا في بعثة دراسية تجوّلت خلالها في أنحاء أوروبا، طالعت فيها عن قرب المنجز الحضاري الغربي في الفنون الحديثة. فكان لهذه المشاهدات والاحتكاك القريب بالمناخ الفني في أوروبا أثرها على رؤيتها الفنية، إذ صارت أكثر انفتاحا على ثقافات الآخرين، وهو ما ساهم في ثراء وغنى تجربتها التصويرية.

ومن هناك، يقدّم لنا هذا المعرض ملمحا لكل التجارب التي مرت بها مسيرة العرارجي الفنية، إذ يمكن أن نطالع ذلك عبر عناوين لوحاتها، مثل "الشهيد"، و"المرأة والتطوّر"، و"الإنسان والكون"، و"المقاومة الشعبية"، و"جدران الزمن"، و"الصيادين" و"الأسواق الشعبية".

ولعل رحلتها إلى أوروبا ثم تجوالها في عواصم أميركا الجنوبية في ما بعد أهّلاها للدخول إلى مرحلتها الأكثر قوة من حيث المعالجة اللونية، والأقرب أيضا إلى روح السريالية، لتتسم أعمالها في تلك المرحلة بحلول غير تقليدية للتكوين والمعالجة اللونية للمساحة والعناصر، وهي المرحلة الأكثر امتدادا بين مراحلها المختلفة، والتي استمرت معها إلى اليوم. وتصف الفنانة تطوّر تجربتها الفنية قائلة "كانت العناصر تبدو في أول الأمر كمكونات موحية للبيئة المصرية، ثم ما لبثت أن تدرجت في التلخيص والاختزال أكثر فأكثر، حتى تحوّلت إلى رموز عضوية مثيرة للإيحاءات. بدت هذه العناصر في ما بعد أكثر تآلفا، في وحدة متسقة، تسبح في فراغ رحب غير محدود. هذا هو تصوري للفراغ الذي يوضح خصوصية الرؤية التي تنبع من الحاضر ولها امتدادات في الماضي وتطلعها للمستقبل نحو عالم أكثر إنسانية وإشراقا".

أقامت الفنانة المصرية فاطمة العرارجي خلال مشوارها الفني الذي يمتد إلى سبعة عقود الكثير من المعارض الفردية بدءا من عام 1958 بمتحف الفن الحديث، تلته عدة معارض بمتاحف الفنون الجميلة ومحمود سعيد بمدينة الإسكندرية، ثم قاعة أخناتون في القاهرة.

وعُرضت أعمالها أيضا في روما وباريس وموسكو والنمسا وطوكيو، وغيرها من المدن الأخرى حول العالم. كما مثلت مصر في بينالي ساو باولو بالبرازيل عام 1985 وغيرها من العواصم العالمية.

«جدران الزمن» استعادة للفنون البدائية

«الأقصر» مصر الحضارة والتنوع

غسان نعنع فنان ينفر من المهارات ورغم ذلك يبهرنا

علي قاسم
كاتب سوري مقيم في تونس

هل صادفتم يوما شخصا يفضل اقتناء اسطوانة موسيقية على شراء ما يقتات به، ويتحدّث عن الموسيقى حديث متصوّف، وبخبرة قائد أوركسترا.

إن حدث وصادفتم مثل هذا الشخص، لا بد أن يكون غسان نعنع. آخر المصوّرين الرومانسيين الذين نسيهم الزمن، ولكن لم تنساه دمشق، المدينة التي أمضى فيها أجمل سنين عمره. وهي، إن غاب عن ذاكرتها بضع سنوات، تعود اليوم لتكتشفه وتقدّمه إلى النخبة المثقفة.

كلمة نخبة لم ترد هنا عفويا، لأن فنانا مثل غسان لا يشبهه سوى طبق كافيار، ولا تتذوّقه سوى نخبة النخب.

مُفرح أن يتذكّر أهل السياسة مثقّفي بلدهم ومبدعيه، فيكرموهم. إنهم بهذا التكريم إنما يكرمون بلدهم وشعبهم. وسوريا تستحق التكريم، وشعبها أيضا يستحقه، وإن أتى متأخرا.

ما حدث في سوريا، لا يدين البلد ولا يدين مبدعيها، فهو دخيل عليهم.

المحنة لم تبدأ في مارس عام 2011، بل بدأت قبل ذلك التاريخ بكثير، بدأت منذ أن كانت دمشق.

هل مرّ على بلاد الشام يوم لم تشهد فيه محاولة غدر؟ بالتأكيد لم يمرّ، وكذلك لم يمرّ على أهلها يوم توقف فيه الإبداع. فشكرا مضاعفا لكل الذين تمسكوا بسوريا ولم يغادروها. شكرا خاصا للمبدعين، الذين حافظت سوريا ببقائهم فيها على وجهها الجميل.

كيف نقرأ أعمال غسان نعنع؟ من يبحث في رسومه عن قصة وحكاية، عليه أن يتوقّف فورا. حتى في الحالات التي يُعنون فيها الفنان أعماله، يمارس علينا نوعا من الخديعة. لذلك علينا أن نقبل أن أفضل عنوان للوحات الفنان هو "بلا عنوان".

أن تمنح اللوحة عنوانا، فهذا يعني أن تقسو عليها.. أيّ موكب للشهيد يريدنا غسان أن نكتشف في اللوحة التي اختار لها هذا العنوان؟

اللوحة موكب لمشاعر حزن، وغضب، وقلق، عزف منفرد بألوان قاتمة، تقول للمشاهد اغرق في بحري، اخترع عوالمك، أنت سيد الموقف، يوقوفك أمامي، أنت شريك للفنان. أغرب بعيدا إن أنت عاجز عن أن تكون شريكا له.

ليس أهلا للوقوف أمامي، من لم يمتلك من الثقافة ما يؤهله لتذوّق هذا العزف الجميل للمسات الفرشاة.

ليس محببا أن تجري مقارنة بين أعمال الفنان وفنانين سبقوه، ولكن كل ما في أعمال غسان يغري بهذه التجربة، ولن ينقذنا منها أن ندعو قائلين: ربنا نجنا من التجربة.. من منا يمتلك القدرة على إيقاف فيض الذكريات أمام أعماله؟

من عتمة الفنان الهولندي رامبرانت ووميض ألوانه، إلى نزق ضربات فرشاة الفنان الرومانسي ديلاكروا، مرورا بواقعية دومييه وكوربيه، انتهاء بالضوء الساطع للإنكليزي الرائع تورنر.. هو كل ذلك وأكثر.

فن لا يتذوّقه سوى نخبة النخب

بعد تخرجه من كلية الفنون الجميلة في دمشق، عام 1978، تابع دراسة الفن في مرسم أناتولي كالانكوف في روسيا، عام 1992. بالتأكيد لم يكن ذلك مجرد صدفة.

الفنان، رغم تحرّر أعماله، هو في الأصل خارج من معطف غوغول، عاشق للواقعية، التي حافظت على وجودها، ولو بشكل متقشف، في جميع أعماله. بدءا بأعمال التخرج في مدينة دمشق، اللوحات التي حضر فيها الفنان الفرنسي كوربيه بقوة، خاصة لوحة "لاقطات الحب". لم يتوقّف غسان يوما عن العودة لرحم الواقعية الذي خرج منه.

كيف استطاع أن يجمع بين الواقعية والرومانسية والانطباعية في آن واحد، سيبقى ذلك سرا يستعصي علينا فهمه، ولكن ذلك لن يمنعنا أبدا من تذوّق أعماله، إن كنا ننتمي إلى نخبة النخب.

سأستعير من الموسيقار محمد عبدالوهاب وصفا أطلقه على المطرب وديع الصافي، عندما سئل عن رأيه في مطرب لبنان والجبل، فقال دون تردد إنه "مطرب المطربين". غسان نعنع هو الآخر "فنان الفنانين"، لن يعيش عوالمه ويقدّر قيمة أعماله إلاّ فنان.

كيف استطاع غسان نعنع أن يجمع بين الواقعية والرومانسية والانطباعية في آن واحد، سيبقى ذلك سرا يستعصي علينا فهمه

أمام لوحاته يتحوّل المُشاهد إلى عرّاف يقرأ الطالع، وينبئ بالمستقبل، يتابع التفاصيل كما يتابع قارئ الطالع خطوطا عشوائية، في قعر فنجان قهوة، يحاول فك رموزه وأسراره.

وكما قراءة الفنجان، لا يجيدها سوى القادرين على مغادرة جسدهم للدخول في غيبوبة، كذلك هو حال المشاهد المجتهد أمام أعمال الفنان. وهو ما عبّر عنه أحد النقاد في حديثه عن لوحات نعنع "إنها قطعة مرئية من اللامرئي الذي نرغب برؤيته".

لا يكتمل الحديث عن غسان نعنع دون أن نعرّج على جانب هام من شخصيته، خبره كل من عرفه، التواضع. ليس فقط في شخصيته، بل في أعماله. فنان ينفر من المهارات، ورغم ذلك يبهرنا.